**مجلة باريس، يونيو ١٩٦٥**

# قرأنا لكم

**لبنان في شخصيته وحضوره**

**لميشال شيحا**

في عالم تتجاذبه النزعات الوحدوية على مستوى القارات، أو على مستوى المصالح المتكاملة، أو على مستوى التاريخ المتجانس، ما هو مبرر أفرادنا اليوم مقالا برأسه للبنان بالذات ؟

وفي العالم العربي بخاصة، حيث تبلغ النزعة الوحدوية هذه مبلغ الهوس الجماعي، علا منا نسلط الضوء على هذا الذي يظنه بعضهم إقليما بين الأقاليم ؟

ليس شأننا، هنا، إثارة المحليات على أنها عالميات، (هذا إذا اعتبرنا، خطأ، أن ما نحن بصدده هو من المحليـات!) . وإنما نحن لموضوع "لبنان في شخصيته وحضوره" نظرا لصدور كتاب بهذا العنوان في منشورات الندوة اللبنانية – بيروت. مؤلفة بالفرنسية ميشال شيحا. ناقله الى العربية فؤاد كنعان.

وميشال شيحا من الذين لا يحتاجون الى التعريف بهم. نقول على سبيل الذكر أنه أديب لبناني اختار الفرنسية لغة للتعبير. ولد عام ١٨٩١ وعاجلته الوفاة في الثالثة والستين من العمر. كتابه الأول مجموعة شعرية عنوانها "بيت الحقول" (١٩٣٤). بعده طلق الشعر في سبيل العمل الصحفي العالي، فتوالت افتتاحياته في اليومية البيروتية "لو جور" سحابة عشرين سنة كان يحدد بها ويوضّح رسالة لبنان ومقومات وجوده، بصبر وروية وانفتاح ومحبة وسعة معارف. وقد جمع مختارات من هذه الإفتتاحيات ونشرها على دفعتين (عام ١٩٥٠ و ١٩٥٢) بعنوان "محاولات أولى" و "محاولات ثانية". كما أنه جمع بعضا من محاضراته ونشرها عام ١٩٤٨ بعنوان "لبنان اليوم". نضيف الى ذلك مجموعة مقالات تتعلق بالمشكلة الفلسطينية، نشرت بعد وفاته بثلاث سنوات. وله أيضا مجموعة تأملات روحية ... أما الكتاب الذي بين يدينا اليوم فهو خمس محاضرات ألقاها في الندوة اللبنانية بين عام ١٩٤٨ و ١٩٥٣، وتولى نقلها الى العربية، منذ أشهر قليلة، الأديب المرهف القلم فؤاد كنعان.

يبرر مقالنا اذن ظهور هذا الكتاب. لا بل يجبرنا على القيام به نظرا لإشراق الرأي والبيان. وحسبنا العرض والتقديم فهما بغنية عن التقييم.

محاضرات خمس هي التالية : "لبنان اليوم" (١٩٤٢). "قيم" (١٩٤٨). "عالم اليوم" (١٩٥٠). "لبنان في العالم – الواقع والمرتجى" (١٩٥١). "لبنان في شخصيته وحضوره" (١٩٥٣). كأنما المحاضرات الأخيرة التي أعطت الكتاب عنوانه هي رصيد ما قبلها، تجمع الشتات وتلم الشعث وتستودعنا وصية المؤلف.

ملاحظة أولى : بما أن هذا الكتاب هو مجموعة محاضرات ألقيت على تفاوت في الزمن ودارت حول موضوع يكاد أن يكون واحدا، كان لا بدّ من التكرارات.

ملاحظة ثانية : الأحد عشر عاما التي تخللتها هذه المحاضرات هي التي شهدت استقلال لبنان ونهاية الحرب العالمية الثانية والمشكلة الفلسطينية وبعض الانقلابات السورية وزوال الملكية في مصر. أحداث جسام بالنسبة للبنان. الاّ أن تفكير شيحا لم يتبدّل، مما يدل على عمق نظرته وشمولها منذ البداية.

ما هي نظرته تلك ؟ هذا ما سنحاول عرضه، دون تقييم كما أسبقنا بالقول، فنمرّ بموقع لبنان الجغرافي، بتاريخه، بتناغم الأجناس والديانات فيه، بدعوته المتوسطية، بعلاقاته بالعالم العربي، بتطلعه الى ما وراء البحار، باقتصاده، بانفتاحيته، بروحانيته، الخ...

تحديد لبنان الجغرافي

يقع لبنان على الساحل الشرقي من المتوسط، متناهيا اليوم على مساحة تداني العشرة آلاف وخمسمئة كيلومتر مربع، أي ما يوازي ربع سويسرا. وهو يجمع بين البحر والجبل والسهل الداخلي. "أما الجبل اللبناني، وهو الذي يترامى في موازاة البحر ومنتظم الحضارات البحرية، مكسوا بالأشجار في شماله أكثر منه في الجنوب، لأن شماله أصعب منالا (في أيامنا كما في الأمس)، أما هذا الجبل فهو اليوم منا سلسلة الفقار، في الحقيقة وفي المجاز... وأما البقاع، وهو ينبسط كذلك بموازاة الجبل والبحر، بين لبنان ومشارقه، فإنه اليوم اهراؤنا البرّة". المهم، بنظر شيحا، هو انفتاح لبنان على البحر، مما يجعل منه "أمة بحرية في جوهره". حتى أن الجبل نفسه ليس سوى "الحصن الذي ينيف على البحر ويحميه. فما أشبه لبنان، كل لبنان، بقصر البحر في صيدون يومذاك". والمهم بنظره أيضا هو وقوع لبنان بين قارات ثلاث " "في مروحة من ثلاثة فروع، هي افريقيا وآسيا وأوروبا، ما أشبهنا بمركز المحور. إننا نحتل ما قد يسمى الموقع – المفتاح". أضف الى ذلك اعتدال المناخ الذي له أثره الفعال في بلورة النشاط اللبناني على اختلاف وجوهه : "تلكم هي وضعيتنا على كرة الأرض. علما بأننا بين الثلاثين والأربعين من درجات العرض شمالا، وإننا ، وقد أعطينا جبلا على مختلف الإرتفاعات المأهولة، وبحرا على مدى رحيب، أعطينا بفضلهما مناخات تجمع بين الليان والتنويع وتوائم الانسان وشتى الزراعات".

تحديد لبنان التاريخي

بعد هذا العرض الجغرافي ، يتساءل شيحا عن "الأحياء الذين يؤلفون اليوم شعبنا"، فيمضي صعدا في مطاوى التاريخ منقبا عن "الوراثات العميقة التي يمكنها أن تعزز حق المواطنية بالحق الدموي". ثم يردف قائلا : "لعمري ليس ذلك بالجواب اليسير". أما تقليب صفحات تاريخ لبنان فيكون بالإستناد الى ما وصل اليه كبار الإختصاصيين من أمثال (كونتنو) و (ريمون ويل) والأب (لامنس) و (ماسبيرو) و (فوشه ده شارتر) الخ... فيخلص الى النتيجة التالية : "إن أهل لبنان هم لبنانيون لا أكثر ولا أقل، وانهم، ما خلا التجنسات الحديثة جدا، ليسوا فينيقيين أكثر منهم مصريين أو ايجيين أو آشوريين أو ماديسين أو يونانيين أو رومانيين أو بيزنطيين أو عربا – بنسب أبوي أو بدونه – أو أوربيين بالمصاهرة، أو أتراكا مثلا". اللبنانيون هم أولئك جميعا. "إن البشر الذين كانوا يعيشون على شطآننا منذ خمسين قرنا، أو أربعين، أو ثلاثين، أو عشرين، والذين ننبش من مطاوي الأحقاب حضارتهم ولغتهم، دون ما يفي من احترام، إن هؤلاء البشر، مهما أبادت الحروب منهم، منذ تلك الأزمنة البعاد، ومهما تكاثرت منهم واليهم النزوحات، ليتوسمون بلا ريب في لبنانيي اليوم ذريتهم العريقة. لم يكن لدمهم أن يتلاشى كليا. فالعقل يأبى تسليما بذلك، حتى ولو لم يكن من سند له الاّ المحتملات". وهكذا فالذين

يريدون أن يتحدثوا عن العنصرية والعرقية الصافية في بلد هو ممر ومقر يجدون نفسهم أمام شهادات التاريخ التي تبطل مزاعمهم، وأمام شهادات الأتينة والإجتماع التي تثبت عكس ما يقصدون اليه.

لبنان والمتوسط

جغرافية لبنان تجعل منه "جمهورية بحرية متوسطية". وكذلك تاريخه الذي يثبت أن جميع الشعوب التي توافدت اليه كانت تتطلع الى البحر، كائنة ما كانت مصادرها العرقية. كما أن الحضارات التي شهدها لبنان كانت متوسطية في الأعمّ الأغلب. "الحضارات المتوسطية التي تقدمت حضارة العرب على شاطئنا، وهي اليونانية والرومانية والبيزنطية، ومن بعد العرب حضارات القرون الوسطى والنهضة وحضارة أوربا في العصور الحديثة، كل هذه ما زالت معالمها في شرائعنا، في طقوسنا، في عاداتنا، وفي ما لدينا من طرائق تعبير وحياة". متوسطية لبنان، بنظر شيحا، ليست أمرا عابرا أو عرضا بين الأعراض او ميزة بين غيرها من الميزات. إنها هي التي تجعل من لبنان ما هو عليه. من هنا ثار شيحا على أولئك الذين يخلطون، عن قصد أو غير قصد، بين الشرق الأدنى والشرق والأوسط. "أليست البحار اليوم هي التي تؤلف المناطق القارية"؟ ذلك بأن الشرق الأدنى هو الذي يطل على الأبيض المتوسط. أما الشرق الأوسط فمطلاته على المحيط الهندي. وأما الشرق الأقصى والأوسط آسيويان ليس غير. و "ميزة الشرق الأدنى أنه أفريقي آسيوي أوربي معا. يمتد تاريخيا وجغرافيا من مصر حتى اليونان... وطرح المسألة على هذا النحو يعني توضيحها كفاية التوضيح". أي أنه يعني "أن مستقبلنا، على الصعيد المتوسطي، هو حصيلة ماضينا قبل كل شيء" ويعني أيضا أن "لبنان بطبيعته موسوم بالميسم المتوسطي".

لبنان والعالم العربي

المقدمات التاريخية والجغرافية شددت على أن لبنان لا يعود أصلا الى العنصر السامي وحده، ولا يعود بيئة الى "شط العرب وحضرموت". إنه متوسطي قبل كل شيء، ودولة من دول الجامعة العربية التي يعيرها شيحا اهتمامه وتقديره : "من الأكيد أن الجامعة العربية مأثرة نبيلة غراء. بل لعلها، من العالم القديم، أوفى شعاراته شرعية". على أنه يناهض دمج لبنان في وحدة عربية أسيوية تتردى في المحيط الهندي، "فجنوبي البحر المتوسط هو من حق اللغة العربية، ذهابا من مراكش حتى خليج الاسكندرون. وهذا الشط هو من الانبساط على هذه البحرة الأم ما يحدو العرب على الاعتزاز بنشق اللباب الصفو من نياسمه وعلى ما يصدفهم أبدا عن نكرانه". أضف الى ذلك أن من صالح العرب الانسجام لا الانصهار، لما بينهم من فروق هيهات أن تزيلها محاولات الاتحاد. وهكذا "ما مهمة لبنان، وما دأبه، الاّ أن يسهم في التوازن العربي بكل ما أوتيه من قوى ووسائل، رجاة أن يشيع بينهم هناء جماعي. فحظ العرب وقف على التوازن وليس على الإنصهار وما يتولد من الإنصهار من تناقضات وتشويش". أما اذا كان هناك من تجمّع جديد يرجي تكوينه تجنبا لإنفجار طاقات عصرنا الجهنمية ، فحول هذا البحر المتوسط عينه ينبغي التجمّع، حيث مشاطئوه شمالا وجنوبا هم أشبه بأميركي الشمال والجنوب". وبما أن أقرب الجيران الى لبنان هما سوريا واسرائيل، شدد شيحا على رسالة سوريا المتوسطية، مشيرا الى ضرورة "انماء التفاهم بيننا وبينها وتوثيق التعاون". الاّ أن لكل من البلدين شخصيته المتميزة : "وكما نحن لنا شخصيتنا، كذلك هي". أما اسرائيل، فموقف شيحا منها موقف المناوىء العنيف، على غير تعصبية عمياء : "إن في تحذيري لبنان وجيران اسرائيل من مصممات اسرائيل، لا أدعو

على الاسرائيليين وعلى اليهود عموما بالويل والثبور. معاذ الله من هذا الموقف الحقير الآثم ! ... فنحن من الصهيونية لا من اليهودية نحترس".

رسالة لبنان

ماضي لبنان وحاضره يرشداننا الى مستقبله، وبالتالي الى الرسالة التي يضطلع باعبائها. إنها رسالة الانفتاح على الفكر حيثما كان فكر، وعلى قيم الحق والخير والجمال. وطن التسامح، لذلك انفتح لجميع الأقليات وأمن لها الحرية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية. كأنما الحرية هي الأسس الذي ينهض فوقه البنيان اللبناني : حجر الزاوية لما نبتغي من اقتصاد. عنينا بها الحريات الشرعية في اطار النظام". على أن الاقتصاد وحده ليس كل شيء، بل إنه يتضاءل أهمية اذا ما قيس بما في لبنان من معرفة ومحبة. أضف الى ذلك اننا "مدعوون للعالمية مذ كان البحر المتوسط من العالم كل العالم". والهجرة التي هي من ميزات لبنان الرئيسية، انما هي وجه من وجوه عالميته تلك. "ولقد بادر سكانه، في عداد الأولين ، الى اقتحام المجازفة بعيدا، على متن زورق من زوارق الحظ، تدفعهم الى عرض اليمّ محاولة اثر محاولة. فذللوا المخاطر، وكبحوا الأنواء ، وحلوا بعد بلاء في الشطوط المجهولة، حيث اكتشفوا أناسا جددا، كما لو نكتشف نحن يوما كوكبا آخر وأناسا آخرين ... ونشروا اللغات وتناقلوا الأخبار. كانوا ولبثوا يتكلمون أكثر من لغة واحدة. وأكثر من ذى قبل ليلبثون".

إنه عرض خاطف لبعض المفصّلات التي تدور حولها كتابات ميشال شيحا وتفكيره في مختلف نتاجه الأدبي. ولا يغربن عن البال أن شيحا المؤرخ، والسياسي، والاقتصادي، والمفكر، هو شاعر قبل كل شيء : "أنا ممن يؤمنون بأن الشعر أفضل مدخل، ليس للآداب وحسب، بل للعلوم. فهو يثير في النفس حالة تفسح في مجال الابتكار والتكهّن. والشعر، في أصفى معانيه، هو ذاك المختصر المتناغم في كل شيء". وعليه فإن لكتابه هذا ما يشبه القشعريرة الدافئة التي تحس بها اذا ما شددت يدا صديقة. فما أبعدنا اذن عن التجريدات الذهنية التي قد تبدو صارمة المنطق، الاّ أنها في برودة المومياءات !

**رواد طربيه**